العدد(1454) السنة السادسة -الخميس (12) اذار 2009 ◆ http://www.almadapaper.com - E-mail: almada@almadapaper.com

كلمة عن مشروع «مركز رأس الخيمة»

د. خالد السلطاني
معمار وأكاديمي

يعد مشروع «مركز رأس الخيمة للاجتماعات والمعارض» في رأس الخيمة/ الامارات، ٢٠٠٦، من المشاريع المتفرّدة، عالية التميّز في الممارسة المعمارية العالمية، إن لجهة لغته التصميمية، أم لناحية مفرداته التكوينية. صمم المبنى «ريم كولهاس» Rem Koolhaas مع فريق مكتب (اوما). ومعلوم ان المعمار الحداثي المولود في عام ١٩٤٤ بـ «روتردام» / هولندا ، بدأ حياته المهنية المعمارية بصورة غير عادية. فهو عمل اولاً كصحفي في جريدة Haagse Post ، ثم ولع في مهنة كتابة السيناريو للسينما والتلفزيون، قبل ان يدرس العمارة في سنة ١٩٦٨ بمدرسة الجمعية المعمارية AA في لندن، ليضحى لاحقاً احد أهم اعلام اساتذة هذه المدرسة التعليمية العريقة، وأحد نجوم معماري مابعد الحداثة. اسس مع مجموعة معماريين « مكتب العمارة المدينية» (اوما) Office for Metropolitan Architecture OMA، الذي اشتهر بتصاميمه المتفردة في هولندا ولاسيما في خارجها. اضافة الى انجازه المهني المرموق، اشتغل ريم كولهاس على الجانب النظرى للعمارة، وقد أمّن له كتابه « نيويورك المُهتاجة: بيان استعادي الى مانهاتن» Delirious New York، a Retroactive Manifesto for Manhattan الصادر ١٩٧٨ حضورا مؤثرا في الاوساط النقدية المهنية، كما ان كتابه الآخر «الصغير، الوسط، الكبير، الكبير جدا» S.M.L.XL. ، الصادر في ١٩٩٥ بعدد صفحاته التى تجاوزت ١٣٧٦ صفحة، عزّز من مكانته التنظيرية في الخطاب النظري المعماري العالمي.

في مشروع «مركز رأس الخيمة للاجتماعات والمعارض»، الذي اعترف باني مفتون بعمارته؛ يلجأ المصمم الى استثمار تأثيرات خاصية (التناقض) التكوينية الى ابعد مداها، مقترحاً لنا تصميماً يعج بالوضوح المشوب بالغموض، والبساطة الحافلة بالتعقيد، والاشكال البسيطة الاولية القادرة على توليد قدر كثير من الالتباس والابهام. ثمة كرة عملاقة تقف بانفراد لوحدها بجانب كتلة هندسية منتظمة وواطئة. والكتلتان اللتان تخدمهما شوارع عريضة بمناسيب مختلفة موقعتان على تخوم منطقة حضرية مكتظة بهيئة هندسية عالية الانتظام تحتوي على عشرات من المباني ذات الارتفاعات المختلفة والاستخدام الوظيفي المتنوع، القادرة، وفقا لفكرة التصميم، إن تستوعب مدينة معاصرة يصل عدد سكانها الى ما يقارب من ١٥٠٠٠٠ نسمة. جدير بالذكر، أن نفوس مدينة رأس الخيمة، وفقا لبعض المصادر، في الوقت الحاضر، لا يتجاوز ١٠٥٠٠٠ نسمة. ويومئ مكان توقيع المركز بالصورة المقترحة من قبل المصممين على جعل هيئته تعمل وكأنها «بوابة» لمدينة مستقبلية، كناية عن مدينة «رأس الخيمة» الجديدة.

يستحضر الشكل العام «لمركز رأس الخيمة» احد اشهر تصاميم عمارة حركة «الكونستروكتفيزم» Constructivizm الروسية في عشرينيات القرن الماضي؛ (الحركة التى طالما افصح «كولهاس» عن اعجابه بها وبطروحاتها)؛ واعني به مشروع «ايفان ليانيدوف» الشهير «معهد لينين للمكتبات» في موسكو (١٩٢٧)؛ الذي يقرأ كولهاس عمارته قراءة «تناصية» باجتهاد، تجد تأثيراتها واضحة في اسلوب صياغة تكوينات «مركز رأس الخيمة» المقترحة. اذ تغدو الكتلة الكروية الزجاجية الموقعة بانفراد بجانب شكل هندسي متوازي الاضلاع، المؤلفة لمفردات التكوين الاساسي لمشروع «ليانيدوف»، جوهر الحل التكويني لمشروع «المركز». لكن «كولهاس» وزملاءه يذهبون بعيدا في «انشاء» مقترحهم التصميمي. فالشكل الكروي البسيط الذي نراه امامنا، استطاع المعمار ان يجعل منه حدثا بصريا مؤثراً، حافلاً بحلول تنضح تعقيدا وتشابكاً. فالكرة هنا ليست كروية تماما. انها «مقطوعة» في أمكنة من جوانب عديدة في محيطها، مشكلة فجوات متداخلة متجه باتجاه المركز، وهذه الفجوات تصل الخارج بالداخل، الداخل المجوف الملئ والمشوش بصرياً باضلاع تركيبية متقاطعة ملتصقة بمحيط الكرة، تسند مستويات عديدة بمناسيب متباينة. يتيح المنظر الداخلي « الانترير» للمشاهد رؤية حركة الناس الزائرين لهذه الاحياز الضخمة بصورة بانورامية، ويعينه في الاستدلال على خدمات وظيفية مختلفة تقدمها تلك الاحياز. إضافة الى تمكينه من رؤية مساحات خضر لمزروعات مبثوثة في مناطق محددة في ذلك الفضاء الفسيح. ثمة تداخل مركب يعمل عمله في ازالة الحدود بين الرائي والمرئي، بين الداخل والخارج، بين مفردات البيئة الطبيعية وتلك المشكلة للبيئة الاصطناعية، ليخلق كل ذلك مشهدا بانوراميا فريداً ،قلما نجد مثيلا له في الاحياز التصميمة المعاصرة. وعلى العموم فان «السيناريو» البصري لهذا المشهد المفعم بالمفاجآت، يرتقي باحداثه و«بانوراميته» مصاف مشاهد افلام «الخيال العلمي»، التى بهرت بها السينما مشاهديها بلقطات غريبة تقترب من «فنطازيا» الخيال. في انترير المركز نشعر بان المصمم مسكون بخلق مشاهد لعوالم غير مسبوقة، وبالتأكيد غير ارضية، تماثل تلك الى تنتمي الى عوالم فضائية أخرى في كواكب بعيدة، وذلك لفرادة المنظر المرئي المتحقق، المنظر المركب والمعقد والمشتبك بالتفاصيل، وطبعا غير القابل للتصديق!.

بهذه اللغة المعمارية المميزة والاستثنائية في فرادتها، قدم «كولهاس» وزملاؤه فكرتهم التصميمية لمشروع (مركز رأس الخيمة للمؤتمرات والمعارض) . وما يزيد من قوة تأثير احياز الكتلة الكروية المختارة وفرادتها البصرية، انها وقعت بجوار شكل هندسي متوازي المستطيلات غاية في البساطة، يطمح المصممون ان يزيد حضوره من تأثير « الصدمة» البصرية التى يفاجأ بها زوار احياز الكتلة المجاورة. بيد إن الامر المؤسف في كل هذه «الرواية» المعمارية المميّزة، ان فكرتها التصميمية لم تلق قبولا او استجابة من قبل رب العمل الذي رفضها، ولم يشأ ان يورط نفسه في مشروع رآه خياليا بالمطلق!. وفي رأينا ، فان رأس الخيمة وعمارة الامارات ككل، ربما فقدت فرصة مواتية، لاظهار امكانات ما يمكن ان يقدمه على ارض الواقع، الفعل المعماري ما بعد الحداثي.

قصر الحمراء.. أنموذج للبيت الأوروبي

2-2

إنجمار كارلسون ❖
ترجمة سعيد الجعفر

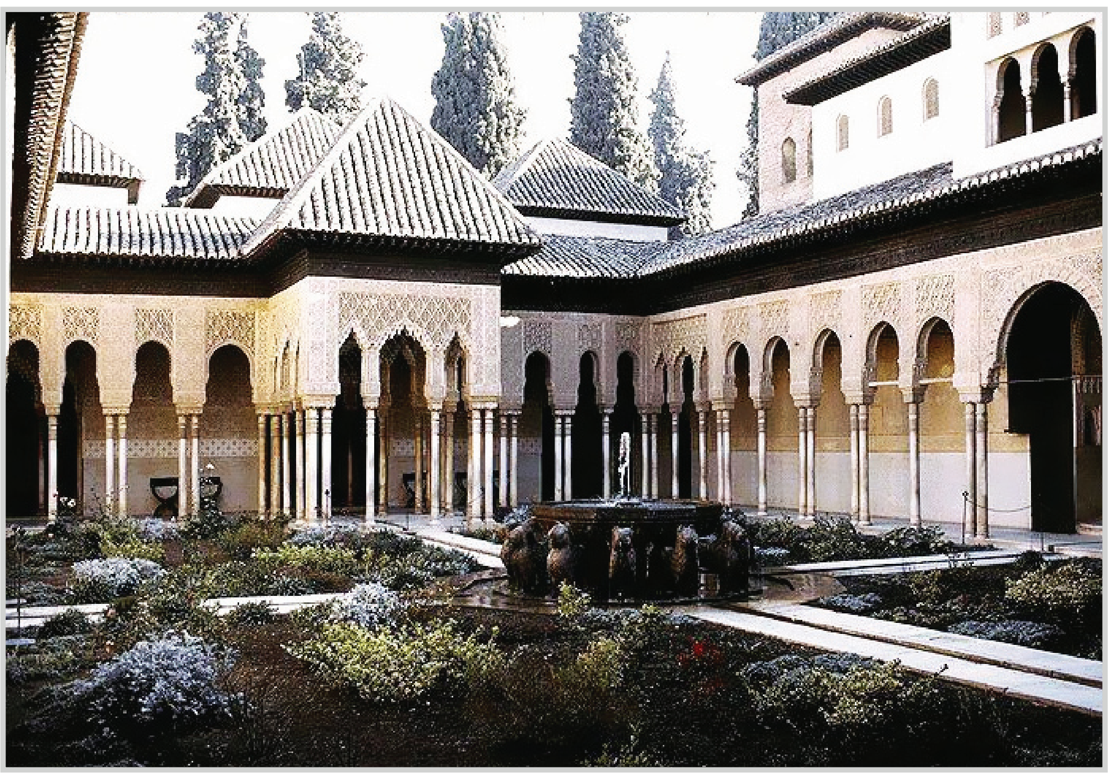

لم يكن فريدريك فون هوهينشتاوفن فقط حاكماً لجزيرة صقلية في النصف الأول من عام ١٢٠٠ ، بل كان أيضاً إمبراطوراً للإمبراطورية الرومية المقدسة وملك القدس. وعلى الرغم من أنه كان صاحب أعلى مركزمدني في العالم المسيحي الا أن حياته الخاصة كانت حياة شبه شرقية. فلقد كان لديه حريم وكان بلاطه يضم فلاسفة من دمشق وبغداد ويهوداً شرقيين وغربيين. إن الانفتاح المميز الذي ساد بلاطه كان أساس عصر النهضة الإيطالي. وكانت العربية واليونانية واللاتينية تستخدم في المناسبات الرسمية. وانتشرت الثقافة والعلوم العربية من جزيرة صقلية الى الجنوب الإيطالي، الذي كان تحت سيطرة النورمانديين في الشمال، علماً بأن فردريك وابنه مانفريد كانا يتقنان العربية. ولقد قاما بدراسة العلوم والفلسفة العربية وبترجمة الأدب العربي الى اللاتينية.

جاءت علوم اليونان الى أوروبا من الأندلس وصقلية، وكذلك جاءت العلوم والتكنولوجيا العربية، لابل أن إسهام العرب في خلق قاعدة للتطور الطبي اللاحق في أوروبا كانت واحدة من أكثر الظواهر نصوعاً في نقل المعرفة عبرالتاريخ . فقد جمع أبو بكر الرازي (المتوفي في عام ٩٣٥) جميع المعرفة الطبية الموجودة في زمانه في ٣٠ مجلداً . وقام بتأليف أكثر من مئة رسالة أعيد نشرها أكثر من ٤٠ مرة مع حلول القرن التاسع عشر. وكانت بحوثه تلك تدرس كمواد مقررة في الجامعات الأوروبية لقرون طويلة. وقد حاز وصفه للجدري والحصبة على شهرة خاصة. وقام الطبيب والفيلسوف ابن سينا(المتوفي في عام ١٠٣٧) أيضاً بوضع دائرة معارف للعلوم الطبية ظلت تستخدم في الجامعات الأوروبية حتى القرن الماضي. وشرح ابن الخطيب(المتوفي في عام ١٣٧٤) كيفية انتقال الطاعون بالعدوى. أما أعمال علي بن عيسى حول أمراض العيون فإنها كانت تظهر فهماً ومعرفة لم تصبح متوفرة في أوروبا قبل القرن القرن الثامن عشر. وكان الطبيب المصري بن النفيس (المتوفي في ١٢٨٨) أول من شرح نظام الدورة الدموية. وهذا مجرد غيض من فيض .

ومنذ القرن التاسع فرض المسلمون على الأطباء ضرورة اجتياز امتحان طبي قبل السماح لهم بممارسة المهنة. وكان تعليم الأطباء يجري في مستشفيات خاصة في المدن الكبيرة. ولقد طور الأختصاصيون في هذه المستشفيات فنون الجراحة. كما جرى مراقبة ووصف مراحل تطور الأمراض المختلفة. وتمت دراسة الأدوية المستخلصة من الأعشاب وتحليل آثارها على الجسم البشري . لقد كانت العلوم الطبيعية متطورة الى درجة أن عالم النبات ابن البيطار من ملقة (الأندلس) وضع مسرداً في القرن الثالث عشر بأكثر من ١٤٠٠ عقار طبي مختلف. وفي الواقع ان محال العطارة كمؤسسات طبية هي إبداع عربي، ولقد كان هنالك محال عطارة رسمية في الأندلس توفر الدواء للعامة.

حقق علماء الفلك العرب تطوراً كبيراً في تحديد المسارات التي يأخذها القمر والكواكب وكتبوا في وقت مبكر عن المد والجزر وعن قوس قزح والهالات (حول الشمس والقمر) وعن الشفق. وافترض العلماء العرب أن الأرض كروية منذ القرن الحادي عشر. وأن إنجازات كوبرنيكوس وكبلر ما كان يمكن لها أن تكون لولا الأنجازات التأسيسية والأولية للعلماء المسلمين.

ولقد تمكن الشماس لوبيتوس من برشلونة من معرفة كيفية استخدام الإسطرلاب عبر قراءة نصوص مترجمة من العربية. وكتب في عام ٩٨٤ الى إخوانه المسيحيين على الجانب الآخر من سلسلة جبال البيرانس حاثاً إياهم على استخدام العلوم العربية لتسهيل إنجاز أهدافهم الدينية: « إن من يرغب بأداء الصلوات في أوقاتها الدقيقة والاحتفال بعيد الفصح في التاريخ الصحيح وتفسير البشائر حول نهاية العام ، عليه استخدام الإسطرلاب. لقد نسينا نحن المسيحيون الحكم القديمة وها هو الله يهبنا إياها عبر العرب».

ولم يمنح العرب أوروبا الإسطرلاب فقط ، بل أعطوهم أيضاً أداة أكثر دقة للحساب، الا وهي الأرقام العربية ، التي يجدر بأن نسميها بالأرقام الهندية كما يفعل العرب. كانت هذه الأرقام معروفة في بغداد منذ عام ٧٢٠ ، ويرجح أنها جاءت الى بغداد عبر التجار الهنود. إن المساهمة الأكثر أهمية لعلماء الحساب الهنود تتمثل في إبداع الصفر وفي وضع النظام العشري. وعقب أكثر من قرن من معرفة هذا النظام قام أبو جعفر محمد بن موسى الخوارزمي(المتوفي في عام ٨٤٦) بتطوير مجالات استخدامه في علم الحساب ونظام العد العشري. وهو يستحق عن جدارة ، لا جدل فيها لقب أبو علم الجبر. لابل أن كلمة« الجبرا» باللغات الأوروبية مشتقة مباشرة من كلمة الجبر بالعربية المشتقة بدورها من تحريف اسم الخوارزمي (المعلومة الأخيرة ليست صحيحة، بل أن كلمة algorithm أي الحساب مشتقة من اسم هذا العالم – المترجم).

كان علم الحساب الجديد ثورة عظيمة الشأن. إذ أتاحت الأرقام الجديدة إمكانية التعامل مع المسائل الرياضية بشكل لم يكن متاحاً في السابق مع استعمال الأرقام الرومانية. ولقد حرر هذا الإنجاز العربي أوروبا من « الاضطهاد الشامل للأرقام» حسب تعبير أحد الرهبان.

كان للانتشار السريع للإسلام نتائج على علوم الجغرافيا أيضاً. إذ تم وضع وصف دقيق لطرق الحج من الحواضر الإسلامية في مصر وسوريا وبلاد ما بين النهرين في وقت مبكر. ونتج عن هذا تأليف دوائر المعارف الجغرافية وكتب الرحلات عبر القارات. وقد وضع أبو عبد الله المقدسي (المتوفي في عام١٠٠٠) مجلداً حول الجغرافيا الطبيعية والبشرية المعروفة في ذلك الزمن على ضوء ملاحظاته والمراقبات الموثوقة للآخرين. وهو أيضاً مؤلف « أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» الذي نقله الأوروبيون الى لغاتهم. كما قام ياقوت الحموي (يسميه الكاتب ياقوت الرومي- المترجم) (المتوفي في عام ١٢٢٩) بتأليف قاموس جغرافي إسمه «معجم البلدان».

ولقد افادت أوروبا أيضاً من العلوم العربية في هذه المجالات أيضاً. إذ قام الملك النورماندي روجر الثاني ، بتكليف الجغرافي العربي الادريسي لوضع خريطة عامة. ولقد قام الإدريسي برسم خارطة للعالم بإضافة الى ٧٢ خريطة تفصيلية لحدود العالم المعروف آنذاك من خط الاستواء الى المحيط الأطلسي غرباً والى المحيط الهادي شرقاً.

كانت المخططات Portolanos التي وضعها راسمو الخرائط العرب واليهود في صقلية ومايوركا في القرن الثالث عشر فريدة في نوعها. إذ أن دقة قياساتها للمسافات لم يجر عليها تحسين قبل حلول القرن السابع عشر. وكلمة أطلس المستخدمة في اللغات الأوروبية مأخوذة مباشرة من اللغة العربية. وعندما قام فاسكودي جاما بالاستعانة بالقبطان العربي ابن ماجد لاكتشاف طريق الهند عبر رأس الرجاء الصالح فإنه كان يعرف تماماً بمن يجب ان يستعين.

أما الرحالة المغربي ابن بطوطة (المتوفي في عام ١٣٦٨ أو ١٣٧٧) فإنه ارتحل الى أصقاع بعيدة أوصلته الى تومبكتو والى بكين والى الفولغا. وهو لاشك رحالة على مستوى ماركوبولونفسه .

وفيما ياتي نخبة من أسماء المسلمين الذين أغنوا أوروبا بعلومهم ومعارفهم والذين وصفهم الكسندر فون هومبلدت بأنهم « منقذي التعليم والثقافة الغربية».

•عباس بن فرناس (المتوفي في عان ٨٨٨) والذي حاول تصميم طائرة قبل نحو ٦٠٠ عام من قيام الإيطالي ليوناردو دافنشي بنفس المحاولة.

• الحسن بن الهيثم (المتوفي في عام ١٠٢٩) الذي اخترع الحجرة المظلمة في التصوير.

•أبو الريحان البيروني (المتوفي في عام ١٠٥٠) العبقري المتعدد المواهب. كان مؤرخاً ودبلوماسياً وأخصائياً في اللغة السنسكريتية وعالم فلك وخبيراً في الخامات وصيدلانياً.

•عمر الخيام (المتوفي ما بين عام ١١٢٣ و ١١٣١) كان شاعراً وعالم حساب في آن واحد.

•إبن رشد (ولد وتعلم في الأندلس وتوفي في عام ١١٩٨) تركت شروحا ته وتعليقاته على أعمال أرسطو آثاراً عميقة في الفلسفة الغربية.

•إبن خلدون (المتوفي في عام ١٤٠٦) يعتبر بحق أبو التاريخ وابو علم الاجتماع، إثر مؤلفه الشهير» المقدمة» عن تأريخ العالم ومنهجه المميز.

ولايمكن التغاضي عن الحضور العربي المميز في بعض مجالات الفن في أوروبا. فالآلات الموسيقية مثل القيثارة والمندولين والعود والطنبور ماهي إلا جزءاً من التراث الثقافي العربي. وبعض هذه الآلات ما تزال تحمل أسماءاً مشتقة من اللغة العربية. وبتأثيرها تبنت أوروبا النمط الموسيقي العربي. وكان التصوير الموسيقي للشهامة العربية خلال فترة الفتوحات موضوعاً محبباً للشعراء العرب خلال فترة طويلة. ولقد انتقل هذا التقليد الى أوروبا وانبثقت عنه الفروسية الرومانسية . وأثرت موسيقى وأغاني التغزل بالنساء على الموسيقى والشعر في فرنسا فولدت الشعر الغنائي «التروبادوري» وكذلك أغنيات «مينيسونج» الألمانية.

تقول أغنية مصرية شائعة « الأرض بتتكلم عربي» ونحن في أوروبا نستعمل العربية من دون أن نعي ذلك. إذ أن الآثار التي خلفها الحكم العربي في إسبانيا وصقلية يمكن متابعتها بشكل خاص في مفردات اللغات الأوروبية، وفي اللغة الأسبانية في المحل الأول.

إن واحدة من كل خمس كلمات في اللغة الأسبانية هي ذات أصل عربي. لا بل أن البطل الوطني الإسباني الذي هزم العرب يحمل اسماً عربياً: « السيد» El Cid . ومعظم السواح الذين زاروا حلبات مصارعة الثيران قد لا يعرفون أن نداء» أوليه» بالإسبانية تمتد جذوره في اللغة العربية. فإنهم بمناداتهم يمجدون اسم «الله « باللغة العربية. وإن اسم أطول نهر في اسبانيا Guadalquivir مشتق في الواقع ومحرف من من الإسم العربي " الوادي الكبير» وماذا عن إسم جبل طارق؟ لابل أن كلمة « هستا مانيانا» .. بمعنى الى اللقاء تعود الى كلمة»حتى» العربية.

ومن بين التعابير الحربية والعسكرية في اللغات الأوروبية التي تعود بأصلها الى اللغة العربية نذكر مثلاً من فرارافير fanfare ودار الصناعة arsenal ، والغزوة ، وقالب calibre . وللتذكير فقط فإن المسلمين وليس البريطانيين هم الذين «سادوا الأمواج» كما تقول الأغنية الإنجليزية. لا بل أن اللقب العسكري للأدميرال نيلسون مشتق من العربية. إن كلمة أدميرال مشتقة من «أمير الرحل» التي تحرفت الى ammiraglio بالإيطالية ثم أدميرال بالعربية بالإنجليزية. وكلمة mansoon هي أيضاً كلمة بحرية مشتقة من كلمة الموسم.

ولقد استعارت اللغات الأوروبية بشكل مكثف من العربية خصوصاً في مجال أسماء النباتات والحيوانات . وكأمثلة على ذلك نذكر: الحشيش hasch ، الذرة durra grain ، الطرحون tarragon ، البادنجان aubergine ، البرقوق apricot ، الكمون cumin(caraway) ، الكافور camphor ، القهوة coffe ، الياسمين jasmine ، الزنجبيل ginger ، السبانخ spanish ، الزعفران saffron ، النارنج orange ، الليمون lemon ، القطن cotton .

وكبرهان على التأثير العربي الواسع الذي شمل مختلف المجالات، والذي يكاد يقارب ما نطلق عليه اليوم اسم» الاستعمار الثقافي» نورد فيما يأتي مجموعة من الكلمات الأوروبية المستعارة مباشرة من اللغة العربية.

(الكحول) alcohol ، (الملغم) amalgam ، (الجبر) algebra

ولا شك في أن الإحساس بالدونية الثقافية ساهم في بلورة موقف المسيحيين تجاه المسلمين الذي تميز بالقسوة واللارحمة. فمثلاً أمر الكاردينال زيمينيس في عام ١٤٩٤ بحرق ثمانين ألف كتاب عربي في غرناطة، بحجة أن « العربية هي لغات عرق كافر وعرق وضيع» . وبعد ثلاث سنوات أجبر المسلمين في إسبانيا على الاختيار بين اعتناق المسيحية أو مغادرة البلاد أو الموت، وخلال الحقبة الزمنية نفسها نفي ربع مليون يهودي بعد أن رفضوا اعتناق المسيحية.

عانت أسبانيا آنذاك من الجنون العرقي نفسه الذي تعاني منه البوسنة اليوم. إذ أن حمى تحويل أتباع الأديان الأخرى الى المسيحية سرعان ما تحولت الى حملة للتمييز العنصري. وحتى ذاك الوقت لم يكن « الدم» أمر ذو شأن إلا للنبلاء الذين لا يمتلكون الأضياع. ولكنه سرعان ما أصبح معياراً حاسماً للتمييز بين البشر. فمثلا تلافى الملك فرديناند والملكة إيزابيلا دخول التاريخ بصفتهما ملكين أتباع ثلاث ديانات،بل فضلا عن وصفهما بالحاكمين الكاثوليكيين.و انتهى هكذا عهد التعايش والوفاق«Convivencia ”.

وكان طرد المسلمين من إسبانيا والتوسع المغولي في الشرق وسقوط بغداد في عام ١٢٥٨ إيذاناً ببدء عصر الركود الثقافي والاقتصادي الذي مازال العالم الإسلامي يعاني منه حتى اليوم. ولقد كتب فؤاد زكريا الفيلسوف المصري الليبرالي يقول:

« إن الموروثات الثقافية والاقتصادية تعمل وتنمو عبر مسارات متشابهة . فالربح لا يمكن أن يأتي دون القيام باستثمار ما. لكن علاقة العرب مع موروثاتهم الثقافية هي للأسف أقرب الى حساب الادخار منها الى الاستثمار المنتج. وعلى العكس من ذلك تمكن الغرب من جني أرباح مستديمة من تراثنا! كيف ذلك؟ عبر انتقاد ذلك التراث والإضافة إليه وتطويره. لا بل عبر نفخ حياة جديدة فيه».

بدأ انحطاط الفنون والعلوم الإسلامية في واقع الأمر مع القرن الرابع عشر. فعوضا عن العلماء والأدباء سيطر على مسرح الأحداث علماء الدين المختلفين ابداً في الشرح والتفسير والمتشاجرين في التفاصيل الثانوية. ولقد عمل أولئك، كما يعملون اليوم ، على الهروب من البؤس السياسي والاجتماعي عبر فرض التطبيق الحرفي للنصوص القرآنية. وعوضاً عن ذلك ساد مبدأ «التقليد « الذي حرم بموجبه إمكانية التفسيرات الحرة للنصوص القرآنية ، ولوحق الفلاسفة والعلماء على أنهم « متمردون» على النظام الإلهي. وجرى التأكيد على الفكرة القائلة بأن كل ما يستحق المعرفة وكل ما يمكن معرفته قد عرف ، وإن المعرفة أكثر موثوقية لدى المصدر الأقرب الى الزمن الذي جاءت به تلك المعرفة . وهناك نصوص في القرآن والسنة يمكن تفسيرها بشكل يدعم وجهة النظر تلك مثل الآية ٣٢ في سورة البقرة « قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العزيز الحكيم».

ويتضمن مذهب» التقليد» موقفاً من العلوم والثقافة يكاد يشبه الصوم. إذ أن أي معرفة لا وجود لها في القرآن فهي معرفة ضارة. وهذا ما يفسر موقف المسلمين المتشكك بالعلوم والفلسفة الحديثة. وتبعاً للتقاليد الموروثة يدعى بأن النبي قال « اجتنبوا الجديد فإن كل جديد بدعة وكل بدعة من الشيطان».

على أن تشييد تاج محل في الهند بدءاً من عام ١٦٣٤ والمسجد الأزرق في إسطنبول هي دلائل معمارية على أن الركود لم يكن سائداً، على الرغم من أن المتطرفين الدينيين كانوا يطبعون العصر بطابع معاداة كل ما هو جديد. ولقد تمكن هؤلاء في عام ١٥٨٠ من تدمير مرصد مراقبة النجوم والكواكب في إسطنبول بعد عام واحد على بنائه. كما تمكنوا من إيقاف أول مطبعة في العاصمة نفسها ١٥٧٢ بعد أن عملت لمدة ١٧ سنة متواصلة.

ولقد تمخض كل هذا عن نتائج يمكن اختصارها بملاحظة أنه ليس هنالك سوى شخص واحد ذي خلفية إسلامية حصل على جائزة نوبل في العلوم. لا بل أن الشخص المعني ، الفيزيائي احمد عبد السلام من الباكستان ، هو على المذهب الأحمدي ، المذهب الذي يعتبره المسلمون المتشددون مجرد هرطقة كافرة.

إن الدعوات الدارجة هذه الأيام التي تدعو الى أسلمة العلوم تذكرنا بالمحاولات التي جرت في ألمانيا خلال الثلاثينيات لتقوية الروح الألمانية التي سعت لتطهير الرياضيات من « العناصر اليهودية» وأن تكون الأبحاث البيولوجية آرية.

إن تجربة الأندلس تؤكد أن التجاوزات المتطرفة التي نراها اليوم على مختلف الأصعدة ، مثل إباحة دم سلمان رشدي ، ليست صنواً للإسلام. إنها ببساطة ليست من الإسلام في شيء. الإسلام هو صهارة للإبداعات المتنوعة وهو مستودع لأفكار متعددة وتميزة، من نظريات يوتوبية استرجاعية حول الخلاص الروحي الى تأكيدات علمانية للهوية الثقافية.

أسبانيا المسلمة هي برهان ملموس على كل هذا، وهي تحد واضح لأفكارنا الجاهزة وللقوالب المسبقة حول الإسلام والمسلمين. الإسلام كان الحضارة المتفوقة وكان الطرف الخلاق حين كانت المسيحية متخلفة عليه قروناً كثيرة. ولقد عاشت المجموعات السكانية المختلفة بظله بتناغم وتجانس من دون اعتبار للعرق والدين. لقد تمكن الإسلام من خلق مجتمع التفاهم ، مجتمع التعايش الذي وصفه المستشرق البريطاني ويليم مونتجمري واط بأنه مفهوم يتضمن التكافل والتكامل والانصهار.

وكما يتضح من سياق هذا العرض فإن أوروبا الحديثة تحتوي على جذور إسلامية أكثر مما يتصوره الشخص العادي. أوروبا انصهار الشرق والغرب. وكل من الإسلام واليهودية كانا مفاهيم أوروبية تأسيسية في نهاية القرون الوسطى. الإسلام على ذلك هو في آن واحد عنصر أجنبي وأصلي ، وعبر المهاجرين حالياً ، هو عنصر جديد في أوروبا المعاصرة التي ، حالها كحال أسبانيا المسلمة، باتت مأهولة أكثر فأكثر بمن كانوا يسمون آنذاك enanciados وهم أناس عاشوا في منطقة حياد بين مختلف الثقافات.

وليس من المعقول أن نتصور الاتحاد الأوروبي خالياً من اللون الأخضر، من العنصر الإسلامي. والسؤال هو هل يمكن يا ترى بناء الاتحاد الأوروبي على أساس أنموذج « الحمراء» في أسبانيا ؟ هذا سؤال مهم وحيوي يتعلق بمستقبل أوروبا. وهذا ، في اعتقادي ، أمر أكثر أهمية من موضوع عمل السوق الأوروبية المفتوحة أو قضية تأسيس البنك المركزي الأوروبي.

❖ من كبار المستشرقين السويديين المعاصرين لديه الكثير من المؤلفات، يعمل حالياً قنصلاً عاماً للسويد في إسطنبول.
المقال أعلاه قدم كمداخلة من المستشرق في ندوة عقدت في ٩-١١ ٢٠٠١ في إسطنبول تحت عنوان «العولمة وتأثيرها على تركيا والعالم الإسلامي».

خالد خضير الصالحي .. رشاقة الخط

سوسن السوداني
عمان

(وجد خالد خضير في فن الرسم ضالة يسكن بها نزعة من نوازع موهبته المتعددة الجوانب .. فهو لاعب شطرنج وشاعر وناقد .حين امسك برأس الخط ، انجذب إلى النقطة الشابحة على رقعة رؤيته شخص وحيد ، قدم من الضفة البعيدة لبحيرة الحبر ، وحينما تكرر حضوره ، تشبع الفنان بحبرية هذا الشخص ، فلم يكن هذا الشخص سوى روح دمية مجنحة ، تبحث عن جسد واسم الأسرة)

محمد خضير

يعد الرسام خالد خضير واحداً من الرسامين الذين كرسوا جهودهم لتأسيس تجربة ارتبطت منذ بداياتها بالصحافة، من خلال عشرات الرسوم التي نشرها في الصحف والمجلات، داخل وخارج العراق، وأغلفة الكتب التي صممها كالمعدان وانفجار دمعة لوارد بدر سالم ومراثي الشمس لعبد الخالق محمود و نار القطرب لحسين عبد اللطيف وغيرها الكثير. (سلم خالد شخصه للطباعة فاحتل حيزا ضيقا إلى جوار النصوص الأدبية. واكتفى الشخص بهذا الحضور ، كما قنع الفنان بالتخطيط وسيلة وحيدة لاستحضار أشباح حبرية لفراغه التصويري. إذ ما يمتاز به التخطيط على اللون والظلال ، اتساع مساحة رقعة البصر ، وتقلص حجم الشكل إلى نقطة ضائعة في فراغ الرقعة الواسع. هذه مزية تناسب لاعب أدوار دهرية.)

كانت تجربة خالد خضير تجربة تميزت بفرادة أسلوبية لا تخطئها العين فرسومه تمتاز برشاقة خطية تظهر القدرة التعبيرية الضخمة التي يتميز بها الخط بيد رسام مخطط ماهر مثل خالد خضير قضى قرابة (٢٥) عاماً في الرسم للصحافة، وطوال ذلك الزمن كان الرسام خالد خضير يبدو قنوعاً تماماً بالطاقة التعبيرية للخط ، ذلك الخط الذي اتخذه وتفاريقه مفردات لبناء لوحاته، مفردات تتضمن إشارات تجريدية(سيميائية) كالنقاط والخطوط المتقطعة والأسهم والحروف والأرقام فشكلت معماراً وصفه القاص محمد خضير بأنه شبح قادم من بحيرة الحبر الداكنة وبحث الشاعر حسين عبد اللطيف في شخوص خالد خضير وهي في أفعالها (الحياتية) علي صفحة الورقة البيضاء متخذه شكل البروفيل الجانبي وهي تستقبل الطائر الذي يقطع فضاء الورقة من اليمين اليسار دائماً.

حينما يضع خالد خضير نصوص الأدب أمامه مشروعا للرسم، يكتفي من أدوات الرسامين فقط بما يتعلق منها بفن التخطيط التي لا تزيد عن سلاية ودواة مملوءة بمداد أسود فاحم ، أو يستعيض عنها بالقلم الحديث المخصص للتخطيط الذي حل محلها، انه لا يحلم سوى بعمل يهيمن عليه الخط ببينة الكاليغرافي، وباستمراريته (الأزلية) التي توصل النقطة بأزلها الخط، والخط بأزله المساحة، والمساحة بأزلها الحجم، وبلون الخط الأسود الفحم المهيمن على بياض الصفحة، ولا يحلم بأن تغزو مهيمنات أخرى إضافية جسد الصفحة.

إن بقعة الحبر التي كتب عنها محمد خضير ، عند هذا الرسام ، هي (نقطة) حبر تتوسع وفق قوانين غامضة لا تعرف(حدودا)مسبقة، وهي تستبيح فضاء الصفحة البيضاء وتدنسها بسواد الحبر الفاحم الذي يسيل عليها من الريشة المعدنية المغموسة بالحبر أو بأية وسيلة للكتابة الحديثة. فيحاول خالد خضير تكريس نمط من (الإحساس البصري بالأشكال) وليس قراءتها وبذلك فهو يخضع لقانون وضعته جيرترود شتاين حين لا تدعو المبدع أن يكتب بعينيه حسب بل والقارئ أن يتعلم القراءة بعينيه، فهو إذن لا يمزج بنيتي الرسم والكتابة معاً من خلال الخط بل هو يقوم ببناء نظام تدويني صوري تعبيري، يجب أن يتواصل المتلقي فيه من خلال القراءة بعينيه أي (رؤية) الوحدات الكتابية وليس قراءتها وهو توجه تميز به المخططون الكبار في فن الرسم الكاليغرافي: كلي وشاكر حسن آل سعيد وهناء مال الله وفاخر محمد وفيصل لعيبي، فكان جهدهم الأكبر منصباً على إيجاد علامة الشيء وليس شكله المشخص كما تعود المتلقون رؤيته في حياتهم العادية وبذلك يخضع أولئك الرسامون (علاماتهم) إلي تجسيد مادي فتكتسي واقعاً آخر مستمداً من مادية الحبر الفاحم وهو يفتض بكارة الورقة البيضاء ويخضع كل علاماته إلي فعل اختزالي وتكثيفي هو جوهر نظامه التدويني، (فما دام التخطيط حرا ، وانفراديا ، في محترفه الأصلي وفي محترف الطباعة الحديثة ، فلننظر إلى تخطيطات خالد خضير في حيزها المستقل عن الرموز الكتابية).

إن النظام التدويني الذي يستمد خالد خضير من أبجديته الشكلية ليست إلا مجزءات إشارية للشكل الإنساني التي يستطيع الرسام طرح تنويعاته الشكلية فيه ضمن نظام تشاكلي يشتمل علي تعددية استعارية داخل الوحدة التشاكلية كما يسميها خالد خضير ذاته في كتاباته عن الرسم، حتى إذا بدأ يجرب(اللعب) بتخطيطاته، خلال برامج الحاسوب الحديثة، بدأت تلك التخطيطات تشهد تحولات ، محسوبة حينا، وغير محسوبة احياناً ، فصارت تلك (التخطيطات) تشهد تاريخا مدونا من التحولات الشكلية ، وتدخّل اللون فيها عنصرا حاسما بما يشبه دخوله جسد الجدرانيات المنسوجة، والسجاجيد و(المدات) الشعبية المحاكة من الصوف الملون بألوان نباتية زاهية، فشهدت تلك التخطيطات تحولات تشابه تلك التي سجلتها أحدى زوجات بيكاسو للوحة (الجورنيكا) من خلال الكاميرا، الا ان الفرق الجوهري بين التجربتين، هو أن تخطيطات خالد خضير أعمال (أصلية) في كل مرة ، وليست صورا فوتوغرافية تسجيلية ملتقطة لمراحل عمل ما ، فهي أقرب إلى الطبعات المتعددة لعمل غرافيكي واحد بتغيرات طباعية متنوعة. مرة رسم وجه السباب ونشر التخطيط في أماكن متعددة منها موقع: http:// /www.iraqiwriter.com الذي يشرف عليه الشاعر فوزي كريم ، إلا انه استعاد ذلك التخطيط بالحاسوب وأجرى مشرطه فيه، فكان الحاسوب يسجل كل تحول يطرأ على ذلك الوجه ، وكان خالد خضير يلغي أي تغير لا يستسيغه (un do) وتارة يستمر ، حتى إذا تجمع قدر من التحولات المقبولة لديه كان يخزن ما أنجزه في عمل جديد مستقل (save as) ، وبذلك يضاف عمل جديد لسلسة استمرت عشرات المرات ، يعود بعد كل واحد منها إلى النسخة الأولى المخزنة في الاضبارة الرئيسة (my documents) غير أن خالد خضير، وبما عرف عنه من محاسبة شديدة للذات كان يتلف الكثير من تلك الأعمال (delete) لعدم قناعته بها ، ولا يبقي سوى على عدد يسير منها قد لا يزيد على أصابع اليد.

فقد اشتغل مرة على نموذج تخطيط أنجزه لنص قصصي هو (انفجار قلب) ، وإذا بذلك الانفجار يمتد إلى عشرات الأعمال التي لم يبق منها سوى ثمانية نماذج فقط . لندع نماذج من تلك الأعمال تفصح عن نفسها في هذه التجربة المرتبطة بالأدب اساساً من خلال رسم النصوص الأدبية، ولنر كيف يتواشج الفعل البشري والامكانات الإضافية التي يحققها العقل الآلي له.